شعوانة

من المصطفيات ومن عابدات الأبلة

* احتراق القلب

يقول مالك بن ضيغم :

كان رجل من أهل الأبلة يأتى أبى كثيرا فيذكر له شعوانة وكثرة بكائها

فقال له أبى يوما :

ـ صف لى بكاءها

قال الرجل :

ـ يا أبا مالك : أصف لك

هى والله تبكى الليل والنهار لا تكاد تفتر

قال أبى :

ـ ليس عن هذا أسألك ، كيف تبتدئ بالبكاء ؟

قال الرجل :

ـ نعم يا أبا مالك تسمع الشىء من الذكر فترى الدموع تنحدر من جفونها كالقطر ـ المطر ـ تساءل أبى :

ـ فمجارى الدموع من المآق الذى على الأنف أكثر أم مؤخر العين مما يلى الصدغ ؟

قال الرجل :

ـ يا أبا مالك : إن دموعها أكثر من أن يعرف منها ، ما هى إلا أن تسمع الذكر فتجىء عيناها بأدمع نسوجا متبادرة جدا

فبكى أبى وقال :

ـ ما أرى الخوف إلا قد أحرق قلبها كله

ثم قال :

ـ كان يقال : إن كثرة الدموع وقلتها على قدر احتراق القلب ، حتى إذا احترق القلب كله لم يشأ الحزين أن يبكى إلا بكى ، والقليل من التذكرة يحزنه

* لم تزل تبكى حتى خرجنا وتركناها

يقول مالك بن ضيغم :

قال لى أبى يوما :

انطلق مع منبوذ حتى تأتى هذه المرأة الصالحة فتنظر إليها ـ يعنى شعوانة ـ

فانطلقت أنا وأبو همام ـ منبوذ ـ إلى الأبلة ، ثم غدونا عليها فدخلنا فسلم عليها منبوذ وقال :

ـ هذا ابن أخيك ضيغم

فرحبت بى وقالت :

ـ مرحبا بابن من لم نره ونحن نحبه ، أما والله يا بنى إنى لمشتاقة إلى أبيك وما يمنعنى من إتيانه إلا أنى أخاف أن أشغله عن خدمة سيده ، وخدمة سيده أولى به من محادثة شعوانة

ثم قالت :

ـ ومن شعوانة ؟ وما شعوانة ؟ أمة سوداء عامية

فقلت لها :

ـ أوصنى

قالت :

ـ أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

[سورة النحل الآية : ١٢٨].

فقال منبوذ :

أول أمس رأيت راعيا يصلى والذئب يحرس له غنمه

فلما فرغ من صلاته سألته :

ـ متى اصطلح الذئب مع الغنم ؟

قال الراعى :

ـ لما اصطلح رب الغنم مع رب الذئب

قالت شعوانة :

ـ صدق الراعى

فهتف أبو همام :

ـ ماذا فعل الفأر فى بيتك ؟

كانت شعوانة قد اشتكت كثرة الفأر فى بيتها

فسألت أبا همام :

ـ ماذا تعنى بسؤالك هذا ؟

فقال منبوذ :

ـ اشتكت شعوانة كثرة الفأر فى بيتها

فقلت :

ـ اقتنى هرة

فقالت شعوانة :

ـ أخشى أن يسمع الفأر صوت الهرة فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحبه لنفسى وقد قال رسول الله ﷺ : حب لأخيك ما تحب لنفسك (رواه

الإمام أحمد) .

فقلت لها :

ـ أيهما أفضل الورع أم الصوم والصلاة ؟

قالت شعوانة :

ـ مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال ذرة من الصوم والصلاة

قال منبوذ :

ـ ما الفرق بين ورع العوام وورع الخواص ؟

قالت شعوانة :

ـ إن ورع العوام ترك الشبهات وأما ورع الخواص فهو صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين وعدم الركون إلى غيره

قلت :

ـ من أين لك هذا ؟

قالت شعوانة :

رأى أحد الصالحين نفسه فى المنام وله جناحان يطير بهما من شجرة إلى شجرة فقيل له :

ـ بما نلت هذا ؟

قال :

ـ بالورع

ثم أخذت شعوانة فى البكاء فلم تزل تبكى حتى خرجنا من عندها وتركناها

يقول يحيى بن بسطام :

كنت أشهد مجلس شعوانة كثيرا وكنت أرى ما تصنع بنفسها

قلت لصاحب لى يقال له عمران بن مسلم ذات يوم :

ـ لو أتيناها إذا خلت

فانطلقت أنا وهو إلى الأبلة فاستأذنا عليها فأذنت لنا فإذا منزل رث الهيئة أثر الجدب عليه بين فقال لها عمران بن مسلم :

ـ لو رفقت بنفسك فقصرت عن هذا البكاء شيئا كان أقوى لك على ما تريدين

فبكت . . ثم قالت :

ـ والله لوددت أنى أبكى حتى تنفذ دموعى ، ثم أبكى الدماء حتى لا تبقى فى جسدى جارحة فيها قطرة من دم ، وأنى لى البكاء ؟

ثم أخذت تردد ذلك حتى خرجنا وتركناها على تلك الحال

* من استطاع منكم أن يبكى فليبك

قال رجل لأبى عمر الضرير :

ـ أتيت شعوانة ؟

قال أبو عمر الضرير :

ـ قد شهدت مجلسها مرارا كنت لا أفهم ما تقول من كثرة بكائها

فقال الرجل :

ـ فهل تحفظ من كلامها شيئا ؟

قال أبو عمر الضرير :

ـ ما حفظت من كلامها شيئا أذكره الساعة إلا شيئا واحدا

فتساءل الرجل :

ـ ما هو ؟

قال أبو عمر الضرير :

سمعتها تقول :

من استطاع منكم أن يبكى فليبك وإلا فليرحم الباكى إنما يبكى لمعرفته بما أتى إلى نفسه

* فى مكة

كانت شعوانة وزوجها إذا جاء الموسم انطلقا إلى مكة

يقول إبراهيم بن عبد الملك :

قدمت شعوانة وزوجها مكة فجعلا يطوفان فإذا أكل أو أعيا جلس وجلست خلفه

فيقول هو فى جلوسه :

ـ أنا العطشان من حبك لا أروى

وتقول هى بالفارسية :

ـ أنبت لكل داء دواء فى الجبال ، ودواء المحبين فى الجبال لم ينبت

ولقيت شعوانة فى الحجر رجلا من العباد كست وجهه صفرة المرض فسألته:

ـ كيف تجدك ؟

قال الرجل :

ـ ذنوب كثيرة ونفس ضعيفة وحسنات ليلة وسفرة طويلة وغاية مهولة

فقال زوج شعوانة :

ـ ما معك من الزاد لما ذكرت ؟

قال الرجل :

ـ معى الأمل فى السيد الكريم

ثم قال :

اللهم لا تقطع بمؤملك فى تلك الغمرات وارحمه فى تلك الحيرة والحسرات إذا انخلعت القلوب من غصص الندامات

وجعل يشهق ويتشهد حتى مات

ولما جن الليل دخلت شعوانة وزوجها الطواف فإذا هى بجارية تطوف وتقول:

أبى الحب أن يخفى وكم كتمته ... فأصبح عندى وقد أناخ وطنبـا

إذا اشتد شوقى هام قلبى بذكره ... وإن رمت قربا من حبيب تقربا

ويبدو فأفنى ثم أحيا به لـــــه ... ويسعدنى حتى ألذ وأطربـــا

طنب المكان : أقام

فقالت لها شعوانة :

ـ يا جارية : أما تتقين الله تعالى ؟ فى مثل هذا المكان تتكلمين بمثل هذا الكلام؟

فالتفتت إليها وقالت :

ـ يا شعوانة :

لولا التقى لم ترنى ... أهجـر طيب الوسن

إن التقى شرَّدنـى ... كما ترى عن وطنـى

أفر من وجدى به ... فحبسه هيمنـــــى

ثم تساءلت :

ـ يا شعوانة : تطوفين بالبيت أم برب البيت ؟

قالت شعوانة :

ـ أطوف بالبيت

فرجعت الجارية رأسها إلى السماء وقالت :

ـ سبحانك ما أعظم مشيئتك فى خلقك ، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار

ثم أنشأت تقول :

يطوفون بالأحجار يبغـون قربـــة إليك وهم أقسى قلوبا من الصـخر

وتاهوا فلم يدروا من التيه من هـم وخلوا محل القرب فى باطن الفكر

فلو أخلصوا فى الود غابت صفاتهم وقامت صفات الود للحق بالـذكر

فأجهشت شعوانة بالبكاء وغشى عليها من قول الجارية

فلما أفاقت شعوانة لم ترها

* قالوا عن شعوانة

* قال ابن عون :

بكت شعوانة حتى خفنا عليها العمى فقلنا لها فى ذلك فقالت :

ـ أعمى والله فى الدنيا من البكاء أحب إلى من أعمى فى الآخرة من النار

* قال روح بن سلمة :

ما رأيت أحدا أقوى على كثرة البكاء من شعوانة

ولا سمعت صوتا قط أحرق لقلوب الخائفين من صوتها إذا هى نشجت ثم نادت :

ـ يا موتى وبنى الموتى واخوة الموتى

* قال الحارث بن المغيرة :

كانت شعوانة تنوح بهذين البيتين :

يؤمـل دنيا لتبقـــى له فوافى المنية قبـــل الأمل

حثيثا يروى أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

الفسيل مفرد ، فسيلة وهى كل عود يقع من شجرته فيغرس كالنخل وغيره

* يقول الفضيل بن عياض :

قدمت شعوانة فأتيتها فشكوت إليها وسألت أن تدعو بدعاء

فقالت :

ـ يا فضيل : أما بينك وبين الله ما إن دعوته استجاب لك ؟

فشهق الفضيل وخر مغشيا عليه

* قال محمد بن عبد العزيز بن سلمان :

كانت شعوانة قد كمدت حتى انقطعت عن الصلاة والعبادة فأتاها آت فى منامها فقال :

أذرى جفونك اما كنت شاجـــية إن النياحة قد تشفى الحزينينا

جدى وقومى وصومى الدهر دائبة فان الدؤوب من فعل المطيعينا

فأصبحت فأخذت فى الترنم والبكاء وراجعت العمل